د. هشام طه سليم
كاتب وباحث

بعث الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ للعالمين نبيا خاتما للرسالات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكان نموذجا للإنسان الكامل، يقتدى به في كل سلوك طيب، وكان رحمة للعالمين، يتنسم عبير تلك الرحمة الحجر والشجر والطير والحيوان والجن والبشر.

كفى به وصفا كريما أن يصفه الخالق جل وعلا بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، فبات ﷺ نبراسا للأخلاق الحميدة ينشرها بين الناس كافة.

ورسول الله هو سبب دخولنا الجنة، وقد بعثه المولى عز وجل بالقرآن الكريم ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، يقول تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (إبراهيم:١).

فقد بعث رسول الله ﷺ بعد انقطاع الوحي عن العالم قرابة ستمئة سنة، عقب نبي الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، وقد رزح العالم تحت وطأة ضلالات الجاهلية، وتحت نير ظلم العباد بعضهم لبعض، حيث انتشرت لغة الحياة للأقوى ولو كان ظالما، وانزوت الأخلاق الحميدة فلم تجد من يؤازرها سوى قلة ممن تمسكوا بالمبادئ القويمة، سواء استنادا إلى بعض الشيم التي رسختها العادات والتقاليد، أو استنادا إلى القواعد الأخلاقية الواردة في الكتب السماوية السابقة التي لم يتناولها المفسدون بالتحريف.

في هذا الخضم المظلم بعث الله سبحانه رسوله بالهدى ودين الحق ليضع للناس مبادئ الحياة القويمة، ويصحح لهم ما اندثر من أسس العدالة والرحمة.

رحمة للعالمين

أرسل الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ رحمة لكل المخلوقات، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ويقول ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

فرسول الله ﷺ رحمة للبشر في حياته بسعيه بينهم هاديا وبشيرا، وهو رحمة للبشر بعد مماته ما داموا ملتزمين بسنته، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣).

بل إن رحمته ﷺ تمتد لتشمل البشر حتى في أحلك المواطن التي

قد تغيب فيها الرحمة عن أذهان أغلبهم، ألا وهي مواطن الحروب مع الأعداء، فيضع للجيش الإسلامي مبادئ تفتقدها كل الجيوش على وجه الأرض وعلى مدار الأزمان، ففيما يرويه أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»[٢].

كما تشمل رحمته ﷺ العالمين، فجاءت رسالته لتخاطب الجن كما تخاطب الأنس بما هم مكلفون به من عبادات، ومن ثم فهو سبب لبلوغ الجن الجنة إذا سمعوا وأطاعوا.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الأحقاف:٢٩-٣١)، فضلا عما ورد من أحكام في «سورة الجن» تؤكد شمول رحمته ﷺ بالجن: هداية وتوجيها.

بل إنه قبل ظهور جمعيات الرفق بالحيوان بقرون ها هو المبعوث رحمة للعالمين يرسخ جل معاني الرفق بالحيوان، والأمثلة من السنة المطهرة كثيرة، فيحذر من حبس الحيوان، وحرمانه من الطعام، فيقول ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها؛ فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٣].

ويستشعر ﷺ ألم أحد الطيور حين أخذ بعض الصحابة منها أفراخها فاشتكت إليه، فأمرهم بعدم ترويعها، وإعادة أفراخها إليها، رحمة بها، فيما يرويه عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، قائلا: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[٤].

حتى النبات تدركه رحمة رسول الله ﷺ، فيأمرنا برعايته وتعهده ابتغاء الثواب من الله سبحانه لقاء ما ينتفع به الناس من ثمارها ومن ظلها، حتى يقول ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٥].

بل وحتى الجذوع المقطوعة البالية تستشعر رحمته، فعن جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، قال: «كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليها، فسكنت»[٦].

بل والجماد كذلك تدركه رحمة رسول الله ﷺ، فيخبرنا عليه السلام أن الجماد يحس ويشعر! فيقول ﷺ عن جبل أحد: «أحد جبل يحبنا ونحبه»[٧]. فما أرحمك يا رسول الله، وما أطيب سيرتك.

مكارم الأخلاق

إن الناظر إلى حال الأمم قبل بعثة الرسول ﷺ يجد أنه رغم انتشار المفاسد في المجتمعات الإنسانية بشكل عام، فإنه كانت هناك بعض التقاليد والمبادئ لا تزال باقية من ناحية، وكانت هناك بعض الآثار المستقاة من المبادئ الدينية التي جاء بها الأنبياء من قبل من ناحية أخرى، من ذلك ما توافق عليه بنو هاشم وبنو تيم وبنو زهرة من عقد حلف أسموه «حلف الفضول» بقصد نصرة المظلوم ورد الحق إليه في مكة المكرمة قبل بعثة رسول الله ﷺ.

ثم جاء رسول الله ﷺ برسالة شاملة هدفها إرساء العدل على الأرض، ووضع المبادئ التي تكفل ترسيخه في المجتمع، فها هو ينبئنا عن نفسه فيما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٨].

ختام الرسالات

لقد بعث الله سبحانه وتعالى الرسل والأنبياء كلا منهم إلى قومه فقط ليعالج فيهم سلوكا معيبا قد استشرى بينهم، وليعود بهم إلى جادة الصواب التي ضلوا عنها، وقد تباعدت المسافات بين كل مجتمع وغيره من المجتمعات على وجه الأرض.

فلما سبق في علم الله سبحانه وتعالى أن العالم كله سيصبح كقرية واحدة بتطور وسائل الانتقال والاتصال، وهو ما سيؤدي إلى أن تصبح الآفات الأخلاقية والمسلكية

متشابهة في كل المجتمعات، حيث تنتقل عدواها بينها لحظيا، كان مقتضى المنطق أن العالم أجمع يحتاج إلى رسول واحد خاتم يهديه، وأن العالم أجمع يحتاج إلى كتاب سماوي واحد يتلقى منه المنهج، ويكون في ذاته معجزة ورسالة إلى كل البشر في الوقت ذاته تتناقله كل وسائل الاتصال فائقة السرعة.

فأرسل الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ بالإسلام، وأيده بالقرآن الكريم معجزة ومنهاجا تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه من تحريف البشر وإفساد المفسدين بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

ذلك أن الأمم السابقة حين جاءتهم الكتب السماوية من الله سبحانه حرفوا كلماتها مرة بالزيادة ومرة بالنقصان بما يتفق وأهواءهم، وبما يحقق رغباتهم الدنيوية الخبيثة.

فها هم اليهود يحرفون التوراة التي أرسل بها موسى عليه السلام، فيحرفون الكلم عن مواضعه فيها، حتى أساءوا إلى الخالق سبحانه، وإلى الأنبياء واتهموهم بأبشع التهم، بل واتهموا بعضهم بالكفر، ذلك فضلا عن سعيهم إلى قتل أنبياء الله والفتك بهم غير مبالين بعقاب الله السميع البصير.

وها هم النصارى يحرفون الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام، فيؤلهونه، ويدعون عليه ما لم يقله من أنه ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- فيتخذونه وأمه إلهين من دون الله، بل ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ظالمين بذلك أنفسهم، والله سميع عليم.

وبين تفريط اليهود وإفراط النصارى، أتى الإسلام دينا قيما وسطا ليقيم الملة العوجاء، وليتم به الله سبحانه وتعالى نعمته على الناس، حيث ينهى رسول الله ﷺ الناس عن التعرض للأنبياء والرسل بالإساءة من ناحية، وتتنزل عليه الآيات الكريمة: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

كما ينهى ﷺ عن الشرك بالله باتخاذ الأنبياء أربابا من دونه من ناحية أخرى، فتتنزل عليه الآيات الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ (الإخلاص:١-٤).

ويعلم ﷺ الناس الدين من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ويبينها لهم، حتى قال لأصحابه: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ».

وحتى خاطب المولى جل وعلا عباده، فتتنزل الآيات يوم عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣).

فقد تفضل الله سبحانه وتعالى على العباد بكمال الدين وبتمام النعمة، وجعل أمة الإسلام أمة وسطا شهداء على الناس، وبعث فيهم رسوله رحمة للعالمين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، فارتفعت به راية الإسلام عالية، وانتشر دين الحق حتى ملأ إرجاء المعمورة، وعلم المسلمون العالم أجمع قواعد العدل، والتسامح، والرفق، والرحمة بالإنسان والحيوان والطير، ورسخ المسلمون مفاهيم الإصلاح في الأرض، فنشروا العلوم في كل إرجائها المعمورة، فكانوا بحق عنوانا للإنسانية الراقية حتى دخل الكثير من الناس في دين الله أفواجا.

وصدق الله سبحانه وتعالى حيث خاطب الرسول محمدا ﷺ قائلا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

الهوامش

١- رواه ابن سعد، ١٩٢/١، وابن أبي شيبة ٥٠٤/١١، والحاكم ٣٥/١، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة بطرقه، برقم ٤٩٠.
٢- أخرجه أبو داود ٢٦١٤.
٣- رواه البخاري: ٣٣١٨.
٤- رواه أبو داود والحاكم وصححه الألباني.
٥- رواه أحمد: ١٢٩٠٢.
٦- رواه البخاري: ٣٥٨٥.
٧- رواه البخاري: ٤٤٢٢.
٨- رواه البخاري في «الأدب المفرد»، رقم ٢٧٣.